منال وحسين
(1)

حجرة الفئران

الكاتبة الراحلة



أماني العشماوي
(رحمها الله)

حجرة الفئران

أمانى العشماوى

أنا منالُ، وأخي حُسَينٌ يصغُرني بسنَتَين، لذلك، أنا أعتني به وأرعاهُ طولَ الوقتِ، فأنا الأُخْتُ الكُبْرى، وإن كان هو في غايةِ الذَّكاءِ، فكثيرًا ما يَقترِحُ عليَّ أنواعًا من الألعابِ تَنْتَهِي بأخطاءٍ خَطيرَةٍ.. كنتُ أَعترِفُ بها سريعًا لأبي وأمي، لكنَّ أخي حُسَينًا يُفَكِّرُ دائمًا في فِكرَةٍ تُجَنِّبُنا الْعقوبَةَ، بنفسِ السُّهولَةِ التي يَقْتَرِحُ بها الألعابَ الْخَطِرَةَ.

كنتُ في السَّنةِ الثّالثَةِ الابتدائيَةِ، فأنا كبيرَةٌ وكنتُ تلميذَةٌ في الْمدرسَةِ نَفْسِها مُنْذُ سَنَتَينِ مَضَتا، والتَحَقَ أخي حُسَينٌ بالسنةِ الأُولى الابتدائيَةِ، فاعتبرتُ نَفسي مسؤولةً عنه ولابُدَّ أنْ أُراقِبَهُ وأطمئنَّ على أحوالِهِ، فكُنتُ أستأذِنُ الْمُدرِّسَةَ في الخُروجِ من الْفَصْلِ للذِّهابِ إلى فَصْلِ أخي لأطمئنَّ عليهِ.

في الْبدايَةِ، تصوَّرَتِ الْمُدَرِّسَةُ أنَّ أخي يُعاني من مُشكِلَةٍ مَرَضِيَّةٍ لذلك يحتاجُ لرعايتي، فكانتْ تَسَمَحُ لي بالذِّهابِ.. فكنتُ أَخْرُجُ مِنَ الْفَصْلِ،

وأسيرُ في فِناءِ المَدْرَسَةِ حتى نِهايَتِهِ، وأصعدُ إلى الطّابِقِ الذي به فُصولُ السَّنَةِ الأولى الابتدائيَةِ، وأستأذِنُ الْمُدَرِّسَ في الدُّخولِ والاطْمِئْنانِ على أخي.. لكن بعدَ ذِهابي مَرَّتَينِ، رفضَ مُدَرِّسُ حُسَينٍ أنْ يَسمحَ لي بالدُّخولِ إلى فَصْلِهِ. فكنتُ أكتفي بالْوُقوفِ على بابِ الْفَصْلِ أو بالْقُرْبِ مِنَ النّافِذَةِ الْمُطِلَّةِ على الْمَمَرِّ الْمُوَصِّلِ بَيْنَ الْفُصولِ، وأُراقِبُهُ وهو يكتُبُ ويقرَأُ ويُجيبُ المُدَرِّسَ.. ثُمَّ أعودُ إلى فَصْلي.

بعد أُسْبوعَيْنِ، نادَتْني الْمُدَرِّسَةُ وقالتْ لي إنَّ والدتي أَخْبَرَتْها أنَّ أخي حُسَينًا لا يحتاجُ لِمُراقَبَتي ولا مُراعاتي، لذلك لن تسمحَ لي بالْخُروجِ مِنَ الْفَصْلِ أثناءَ الدَّرْسِ.

جلستُ مكاني وأنا حائِرَةٌ، لقد فقدتُ السَّببَ الْوحيدَ الذي كنتُ أَخْرُجُ به من الْفَصلِ.. فقَرَّرْتُ أنْ أَلْجَأَ لسببٍ آخَرَ.. فكنتُ أستأذِنُ الْمُدَرِّسَةَ أنْ أذهبَ لأَشْرَبَ، وكنتُ أذهبُ أولاً لأشربَ فِعْلاً، فأنا لا أَكْذِبُ أبدًا.. ثم أنْطَلِقُ إلى فَصلِ أخي حُسَينٍ لأَطْمَئِنَّ عليهِ.

ذاتَ يومٍ، غَضِبَتْ مُدَرِّسَتُنا على أحدِ التَّلاميذِ لأنَّهُ غَشَّ في امتحانِ الْحِسابِ، فصاحَتْ به: "إذا غَشَشْتَ مرَةً أُخرَى، سوفَ أَحْبِسُكَ في حُجْرَةِ الْفِئْرانِ"!!

كانت مُفاجَأَةً مُذْهِلَةً لي أنَّ هُناك حُجْرَةَ فِئْرانٍ في الْمَدْرَسَةِ، ومع أنني كُنتُ أُمْضِي فُسْحَةَ الظَّهيرَةِ كُلَّها في التَّجَوُّلِ في الْمَدْرَسَةِ، لكنّي لم أُصادِفْ هذه الحجرةَ أبدًا.. كَتَمْتُ دَهْشَتي وحاوَلْتُ التَّرْكيزَ في دَرْسِ الْقِسْمَةِ الْمُطَوَّلَةِ التي كنّا نَتَعَلَمُها، لكنْ مسأَلَةَ حُجْرَةِ الْفِئْرانِ ظَلَّتْ تَشْغَلُ بالي.

اسْتَأْذَنْتُ الْمُدَرِّسَةَ أنْ أُغادِرَ الْفَصْلَ لأَشْرَبَ، وذَهَبْتُ أَولاً لأَشْرَبَ، ثم تَسَلَّلْتُ إلى فَصْلِ أَخي ووقَفْتُ أُراقِبُهُ كَعادتي.. ثم تَذَكَّرْتُ فَجْأَةً أنّني خَرَجْتُ لأَبحَثَ عنْ حُجْرَةِ الْفِئْرانِ، فَرُحْتُ أَدورُ في الْمَدْرَسَةِ وأَتَفَقَّدُ كُلَّ الْحُجُراتِ الْمُقْفَلَةِ والزَّوايا الْبَعيدَةِ، فلم أَجِدْها، فعُدتُ إلى فَصْلي وأنا أَشَدُّ حيرَةً مما خَرَجْتُ.

كنتُ كُلَّ يَوْمٍ أستأْذِنُ الْمُدَرِّسَةَ لأَشْرَبَ، ثُمَّ أَبْدَأُ رِحْلَةَ الْبَحْثِ عنْ حُجْرَةِ الْفِئْرانِ بعد أنْ أشربَ طَبْعًا.. ومنذُ ذلكَ الْيَوْمِ نسيتُ مَسْأَلَةَ الاطمئنانِ على أخي الصَّغيرِ، ولم أعدْ أذهب إلى فَصْلِهِ أبدًا.

مرَّتِ الأيامُ، وأنا أَلُفُّ وأَدورُ في الْمَدْرَسَةِ، ثم امْتَدَّتْ جَوْلاتي إلى رَوْضَةِ الأطْفالِ التّابِعَةِ لِمَدْرَسَتِنا والْمُجاوِرَةِ لها، فكنتُ أَنْحَشِرُ بين السّورِ وبَيْنَ مَباني الْمَدْرَسَةِ في مَمَرٍّ ضَيِّقٍ بالْكادِ يسمحُ بِمُروري، وأُتابِعُ بَحْثي عنْ حُجْرَةِ الْفِئْرانِ في الْجِهَةِ الأُخْرَى.. بلا فائدةٍ.

وطبعًا كنتُ أُكَرِّسُ جُهدي أَثْناءَ الْفُسْحَةِ لمزيدٍ مِنَ الْبَحْثِ، وكنتُ أسأَلُ تَلاميذَ الْمَدْرَسَةِ إذا كانَ أَحَدُهم قد رأى الْحُجْرَةَ أو عوقِبَ بالذِّهابِ إليها، لعلَّهُ يَصِفُها لي، لَكِنْ مِمّا زادَ حيرَتي أنَّ أحدًا لم يَرَها ولم يَدْخُلْها.

ذاتَ يومٍ، طلبْتُ مِنَ الْمُدَرِّسَةِ الإذْنَ لأشربَ فَقالتْ: "ليسَ مِنَ الْمَعْقولِ أنَّكِ تَحتاجينَ لِشُرْبِ الْماءِ كُلَّ يَوْمٍ في الْحِصَّةِ الثانِيَةِ"، ورَفَضَتْ أنْ تَسْمَحَ لي بالْخُروجِ.

عُدْتُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ في ذَلِكَ الْيَومِ وحَكَيْتُ لأخي حُسَينٍ أنَّ الْمُدَرِّسَةَ رَفَضَتْ السَّماحَ لي بالْخُروجِ للشُّرْبِ، فَتَأَثَّرَ لحالي وسأَلَني: "هلْ كِدتِ تَموتينَ مِنَ الْعَطَشِ"؟

قُلْتُ: "لا، لم أَكُنْ عَطْشَى أَصْلًا، وإِنَّما كُنْتُ أَتَجَوَّلُ في المَدْرَسَةِ بَحْثًا عَنْ حُجْرَةِ الْفِئْرانِ".

قالَ حُسَينٌ: "هَذِهِ المُشْكِلَةُ أُعاني منها أنا أَيضًا، فالْمُدَرِّس يُهَدِّدُنا دائمًا بأَنَّهُ سَيَحْبِسُنا في حُجْرَةِ الْفِئْرانِ، لَكِنَّهُ لم يُنَفِّذْ تَهْديدَهُ حتى الآن"!

ثُمَّ تَفَتَّقَ ذِهْنُهُ عَنْ حيلَةٍ جَديدَةٍ، فقالَ لي: "لا تَحْمِلي همًّا، سَوْفَ أُساعِدُكِ في الْعُثورِ علَيها".

شَكَرْتُهُ، وزالَ هَمّي، فأخي حُسَينٌ صَبِيٌّ ذَكِيٌّ وماهِرٌ في الْوُصولِ إلى ما يُريدُ.

مَرَّ يَوْمانِ، ولم أَسْمَعْ أيَّ جَديدٍ عنْ جُهودِ أَخي حُسَينٍ، ثمَّ في الْيَوْمِ الثّالِثِ، بعدَ انْتِهاءِ الْيَوْمِ الدِّراسِيِّ، وَجَدتُ حُسَينًا يَنْتَظِرُني على بابِ الْمَدْرَسَةِ.

سَأَلْتُهُ: "هلْ عَثُرْتَ على حُجْرَةِ الْفِئْرانِ؟"

تَنَهَّدَ وقالَ: "كلا.. للأسفِ، فقدْ هَدَّدَنا الْمُدَرِّسُ أنْ يأْخُذَ التِّلْميذَ الذي لا يحفظُ مَقْطوعَةَ الشِّعْرِ إلى حُجْرَةِ الفِئْرانِ.. فلمّا جاءَ دَوْري، وقفت ساكتا ولم أسمعها".

قاطَعْتُ أخي قائلةً: "لَكِنَّكَ تَحْفَظُها، وتَحْفَظُ كُلَّ أشْعارِ السَّنةِ الأولَى مُنْذُ كانَتْ مُقَرَّرَةً علَيَّ، وكُنْتَ أنتَ في الرَّوْضَةِ".

وصلَ أبي بسيّارَتِهِ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، فأَكْمَلَ أخي حِكايَتَهُ بعد أن رَكِبْنا مع أبي.

قالَ: "نَعم أحْفَظُها، لَكِنّي أُريدُ أنْ أَذْهَبَ إلى حُجْرَةِ الْفِئْرانِ.. لَكِنَّهُ لم يَأْخُذْني.. بَلْ سامَحَني وأَمْهَلَني للْيَومِ التّالي، فوقفت ساكتا في الْيَومِ التّالي أيضا.. فقالَ لَهُ الْوَلَدُ الْجالِسُ بجِواري إنَّني أَحْفَظُها، فناداني الْمُدَرِّسُ وطلبَ مني تَسْميعَها بَيْني وبَيْنَهُ، يبدو أنه تصوَّر أنني أرتَبِكُ أمامَ الجميعِ.. فَرَفَضْتُ، فهَدَّدَني بحُجْرَةِ الْفِئرانِ، فَصَمَّمْتُ على الرَّفْضِ،

فهَدَّدَني للْمرَّةِ الثّانِيَةِ، فزادَتْ حَماسَتي وقُلْتُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ: "لا.. لَنْ أَقْرَأَها"

"صَمَّمَ الْمُدَرِّسُ على مُعاقَبَتي، وأَخَذَني مِنْ يَدي وخَرَجَ بي مِنَ الْفَصْلِ، وأنا أَسيرُ بِجِوارِهِ بِسَعادَةٍ غامِرَةٍ، أَكادُ أَقْفِزُ مِنْ شِدَّةِ الْحَماسِ".

"دارَ بي في الْمَدْرَسَةِ مَرَّتَيْنِ.. ثُمَّ عادَ بي إلى الْفَصِلْ وَهُوَ يَقولُ: "لقد سامَحْتُكَ هَذِهِ الْمَرّةَ أَيْضًا، وإِياكَ أنْ تُكَرِّرَها"

"كِدتُ أبْكي مِنَ الْحَسْرَةِ.. بعدَ أنْ كِدتُ أَصِلَ إِلَيْها.. لَكِنّي تَمالَكْتُ نَفْسي ولم أَبْكِ، وعُدتُ إلى مَكاني حزينًا..

وهكذا مازالَ مكانُها مَجْهولاً".

سَمِعَ أبي حِوارَنا في السَّيّارَةِ، فسأَلَنا ما الْحِكايَةُ مِنْ أَوَّلِها.

فحَكَيْنا لَهُ عَنْ حيرَتِنا وبَحْثِنا الدّائِبِ، وسأَلْتُهُ: "هلْ كانتْ هُناكَ حُجْرَةَ فِئْرانٍ في أيامِ دِراسَتِكُم"؟

ضَحِكَ أبي وقالَ: "كانَ الْمُدَرِّسونَ يُهَدِّدُونَنا بها، لَكِنّي أَتَعَجَّبُ أنَّ هذا التَهْديدَ مازالَ قائمًا.. فليس هُناكَ شَيءٌ اسْمُهُ حُجْرَةُ الْفِئْرانِ.. ومِنَ الْمُؤْسِفِ أن يُهَدِّدَ الْمُدَرِّسونَ التلاميذَ بها".

وَصَلْنا الْبيتَ وتَغَدَّيْنا وانْتَهَيْنا مِنَ الْمُذاكَرَةِ، فَجَمَعَتْنا أُمّي في غُرْفَةِ الْجُلوسِ..

.. وقالتْ مُباشَرَةً: "لا يوجَدُ شَيءٌ اسْمُهُ حُجْرَةُ فِئْرانٍ، ولا يَجوزُ للْمُعَلِّمينَ أنْ يُهَدِّدوا الأطْفالَ بأشياءَ غَيرِ حقيقيةٍ، فلا تَخافوا ولا تَفْزَعوا مِنْ حِكايَةِ حُجْرَةِ الْفِئْرانِ".

تَعَجَّبْتُ أنَّ أُمّي تقولُ لنا أنْ لا نَخافَ، فنحنُ لا نَخافُ، وإنَّما كُنَّا فضولِيين فقط، أَرَدْنا أنْ نَرى الْحُجْرَةَ لِنَفْهَمَ كَيْفَ يُعاقِبونَ التَّلاميذَ بالذَّهابِ إلَيها.

انْشَغَلْتُ أنا وأخي حُسَينٌ في شَرْحِ الأُكْذوبَةِ لباقي التَّلاميذِ، فقدْ كان بَعْضُهُم يخافُ فِعلاً مِنْ حُجْرَةِ الفِئْرانِ، لَكِنَّهُمْ كُلَّهُم وللهِ الْحمدُ عَرَفوا أنَّها أُكْذوبَةٌ ولم يَخافوا بعد ذَلِكَ أبدًا.

ويَبْدو أنَّ أُمّي قالتْ لِلْمُدَرِّسينَ والْمُدَرِّساتِ نَفْسَ الْكَلامِ الذي قالَتْهُ لنا، لأَنَّهُم، في الْعامِ التّالي، تَوَقَفوا عَنْ تَهْديدِ التَّلاميذِ بالذَّهابِ إلى حُجْرَةِ الْفِئْرانِ.